

## الفصل الثاني

### سَيِّدُ الشَّفَعَاءِ

- \* أَوَّلُ شَفِيعٍ.
- \* الْفَاتِحُ الْأَوَّلُ.
- \* الدَّعْوَةُ الْمُخَبَّأَةُ.
- \* «اللَّهُمَّ : أُمَّتِي .. أُمَّتِي»
- \* عَدَدُ الْخَصَائِنِ النَّبَوِيَّةِ.

## أَوَّلُ شَفِيعٍ

أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن أنس بن مالك، قال: قال النبي ﷺ: «أنا أول شفيع في الجنة، لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت، وإن من الأنبياء نبيا ما يصدق من أمته إلا رجل واحد.»

\*\*\*

هذا الحديث الشريف يبين نماذج من فضل الله تبارك وتعالى على سيدنا محمد ﷺ فهو أول شفيع في الجنة، بمعنى أنه ﷺ أول طالب للشفاعة، ليُدخِلَ بهذه الشفاعة بعض أمته إلى الجنة.

وقد ورد في بعض الروايات أنه ﷺ أول من يقرع باب الجنة، بمعنى أنه ﷺ يتقدم السابقين من أمته ليفتح لهم باب الجنة حتى يلجوا فيها. وعن كيفية هذا القرع يقول عليه الصلاة والسلام: «أتى باب الجنة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن: «من أنت؟» فأقول: «محمد»، فيقول: «بك أمرت، لا أفتح لأحد قبلك».

ويسوق النبي ﷺ نموذجا آخر من فضل الله تبارك وتعالى عليه: فهو أكثر الأنبياء تبعاً، لأنه آخر الأنبياء، وصاحب الرسالة العانية الخالدة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فعلى مدى الأجيال والأزمان والأماكن تتقلب الدعوة الإسلامية نورا وهداية...

وَإِذَا كُنَّا الْيَوْمَ أَكْثَرَ مِنْ بِلْيَارٍ مُنْطَمٍ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، فَكَمْ  
كَانَ الْمُسْلِمُونَ بِالْأَسْب؟ وَكَمْ يَكُونُونَ غَدًا وَإِي مَا شَاءَ اللَّهُ؟ ١٩٠ .

إِنَّ ارْتِبَاطَ الْمُسْلِمِينَ بِنَبِيِّهِمْ ﷺ ارْتِبَاطٌ صَحِيحٌ لَمْ يَخْرُجْ عَنِ الْحَقِّ وَأَصُولِ  
الدين.. أَمَا ارْتِبَاطُ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْبِيَائِهِمْ فَهُوَ ارْتِبَاطٌ كَاذِبٌ يَتَبَرَأُ مِنْهُ  
الأنبياء.. قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ،  
وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيَقُولُوا نَحْنُ مُبْتَدِعُونَ  
بَعْضَ مَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ١٥٠﴾  
أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ١٥١﴾ وَالَّذِينَ  
ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ  
أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ١٥٢﴾ (١)

فَمِنْ إِنْ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ كَانَتْ رِسَالَتُهُمْ مَحْدُودَةً زَمَانًا وَمَكَانًا، فَكُلُّ  
نَبِيٍّ بُعِثَ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَانْتَهَتْ رِسَالَتُهُ بِبَعْثِ النَّبِيِّ الَّذِي بَعْدَهُ.  
فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالرُّسُلِ السَّابِقِينَ مَحْدُودُونَ وَلِنَنْظُرَ إِلَى نَوْحِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ  
وَالسَّلَامُ، وَهُوَ أَطْوَلُ الْأَنْبِيَاءِ عَمْرًا، وَمَكَثَ فِي قَوْمِهِ دَاعِيًا أَلْفَ سَنَةٍ  
إِلَّا خَمْسِينَ سَاعَةً، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ وَصَفَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ  
بِأَنَّهُمْ قَلَّةٌ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنٰوُرُ قُلْنَا  
أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ  
ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ١٥١﴾ (٢)

(١) سورة النساء الآيات ١٥٠ - ١٥٢ .

(٢) سورة هود الآية ٤٠ .

## الْفَاتِحُ الْأَوَّلُ

أخرج أخرج مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ بِسَنَدِهِ عَنِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «آتَى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأُبْتَفِتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: «مَنْ أَنْتَ» فَأَقُولُ: «مُحَمَّدٌ». فَيَقُولُ: «بِكَ أَمَرْتُ.. لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ».

\*\*\*

هَذَا مَشْهُدٌ كَرِيمٌ مِنْ مَشَاهِدِ الْيَوْمِ الْآخِرِ يَكُونُ إِعْلَاءً لِشَأْنِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ، وَإِمْتِدَادًا لَصِدْقِ الْوَعْدِ الْإِلَهِيِّ:

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ﴿١﴾

لَقَدْ تَعَدَّدَتْ أَلْوَانُ الْفَضْلِ الْإِلَهِيِّ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْمَشْهُودِ، بَدَأَ بِالشَّفَاعَةِ الْعُظْمَى، وَمُرُورًا بِالْحَوْضِ الشَّرِيفِ وَالشَّفَاعَاتِ لِأُمَّةِ الْإِسْلَامِ، وَانْتِهَاءً بِهَذَا التَّشْرِيفِ الْعَظِيمِ..

إِنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا ﷺ يَأْتِي إِلَى الْجَنَّةِ وَيَتَقَدَّمُ السَّابِقِينَ وَاللَّاحِقِينَ، وَهُمْ جَمِيعًا تَبِعَ لَهُ وَخَلْفَ لَوَائِهِ الْمَرْفُوعِ.. وَيَسْتَفْتِحُ، أَيْ: يَطْلُبُ فَتْحَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، كَيْ يَلِجَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ وَمِنْ كَافَّةِ الْأُمَمِ... فَالْمُؤْمِنُونَ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ، وَالْكَافِرُونَ يُسَاقُونَ إِلَى جَهَنَّمَ جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ.. لَكِنَّ شَتَانَ مَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ! ..

(١) سورة الشرح الآية ٤.

إِنَّ سَوْقَ الْمُؤْمِنِينَ: فِي مَوَاقِبِ النُّورِ، تَحْفَهُمْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ  
وَإِنَّ سَوْقَ الْكَافِرِينَ: فِي مَتَاهَاتِ الظُّلْمَةِ، تَطَارِدُهُمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ مِنْ  
كُلِّ جَانِبٍ..

قال تبارك وتعالى:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۗ﴾ (١)

وقال جلُّ شأنه:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ۗ﴾ (٢)

وقال سبحانه وتعالى:

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ  
الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ يَوْمَ  
يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا  
وِرَاءَكُمْ فَأَلْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهَا بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ  
قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٤﴾﴾ (٣)

وعندما تصل مواقب النور إلى أبواب الجنة يتقدمهم المصطفى الأمين  
سيدنا محمد ﷺ، ويتساءل خازن الجنة عن هذا المُتقدِّم المُختار،  
فيقول: «أنا مُحَمَّدٌ» فيعلن هذا الخازن أمام الأشهاد: «بِكَ أُمِرْتُ..  
لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ».

فيفتح الباب، ويتقدَّم الرسولُ الأعظمُ، وتتوالى مواقب النور.

(١) سورة الزمر الآية ٧١.

(٢) سورة الزمر الآية ٧٣.

(٣) سورة الحديد الآيات ١٢ - ١٣.

## الدَّعْوَةُ الْمُخَبَّأَةُ

الخروج  
مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ.. فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي، شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَهِيَ نَائِلَةٌ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»..

\*\*\*

دُعَاءُ الْأَنْبِيَاءِ كُلُّهُ مُسْتَجَابٌ لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَكْثَرُ عِبَادَةً لَهُ سَبْحَانَهُ، وَهُمْ الَّذِينَ يُكْرِمُهُمُ اللَّهُ أَمَامَ أَقْوَامِهِمْ بِإِجَابَةِ دُعَائِهِمْ، تَصَدِيقًا لَهُمْ فِي نُبُوتِهِمْ..

فماذا يعني - إذن - قوله: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ»؟ هل هي دعوة واحدة مستجابة، وباقي الدعوات لا يُستجاب لها؟

ذهب العلماء إلى أن مقصود الحديث الدعوة المُتَيْقِنَةُ، فلِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَقْطَعُ بِاسْتِجَابَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهَا فِيهَا.. أَمَّا بَاقِي الدَّعَوَاتِ فَهِيَ عَلَى رَجَاءِ الْإِجَابَةِ وَلَيْسَ عَلَى الْقَطْعِ، أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ: لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ عَامَّةٌ فِي قَوْمِهِ مُحَقَّقَةٌ.. أَمَّا بَاقِي الدَّعَوَاتِ فَتَكُونُ خَاصَّةً لِغَرْدٍ أَوْ أَهْرَادٍ..

وهذه الدعوة العامة المُتَيْقِنَةُ تعجلها الأنبياء السابقون في الدنيا،

ودعوا بها على أقوامهم المكذبين، بعد أن طال العناد واستحكمت الفساد  
وتسلط الكبرياء والطغاة..

فنوح عليه الصلاة والسلام - بعد جهاد طويل ومرير - ما آمن معه  
إلا قليل، فدعا على قومه:

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٦٦﴾ إِنَّكَ إِنْ  
تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

واستجاب الله الدعوة، فأمر نوحًا بصنع السفينة وحمل المؤمنين  
فيها ثم فتح الله السماء بماء منهمر، وفجر الأرض غيونا.. وكان النوح  
كالجبال، وقيل: بُعدا، أي: هلاكًا للقوم الظالمين.

وموسى عليه الصلاة والسلام ينس من إيمان فرعون وقومه:

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا  
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ  
وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ  
دَعْوَتُكُمْ مَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَبْتَغَيْنَ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٢)

وتمثلت هذه الإجابة في أن الغرق أدرك فرعون وجنوده، وغشيتهم  
من اليم ما غشيتهم..

﴿ فَمَا يَكْتُمُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (٣)

(١) سورة نوح الآيات ٢٦ - ٢٧.

(٢) سورة يونس الآيات ٨٨ - ٨٩.

(٣) سورة الدخان الآية ٢٩.

وهكذا تعجل كل نبيُّ دعوته في قومه. فماذا فعل رسول الله ﷺ ١٢  
 إن رسول الله ﷺ : أخر دعوته العامة المتيقنة في قومه إلى يوم  
 القيامة، ولم يتعجلها في الدنيا، وذلك لكمال شقيقته ورحمته بأمتيه،  
 كما قال تبارك وتعالى:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ  
 حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨) ﴿١﴾.

إن دعوة الآخرة خيرٌ من دعوة الدنيا، فالآخرة خير وأبقى، وإن  
 الدعوة في الشدة أنفع من الدعوة في الرخاء؛ فوقت الشدة أحوج الأوقات  
 إلى الدعاء.. وهذه الدعوة النبوية العامة تنال كل المسلمين المؤخدين،  
 الذين أيقنت قلوبهم بوحدانية الله تبارك وتعالى، ونبوته محمد ﷺ،  
 والتصديق الجازم بكل ما علم من الدين بالضرورة: كالصلاة والصيام  
 والزكاة والحج وسائر المأمورات والمنهيات.. فإذا مات الإنسان على تلك  
 العقيدة الصحيحة، فإن الشفاعة تلحقه، مهما كانت أعماله بعد ذلك..

وقد جاء في بعض روايات الصحيح: فأقول: «رَبِّ أُمَّتِي.. أُمَّتِي»  
 فيقال: [ انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من  
 إيمان، فأخرجه منها»

فالإيمان هو أساس الثواب، ومن لا إيمان له فلا ثواب له، قال تبارك  
 وتعالى في حق الكافرين:

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨.

﴿ وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنشُورًا ﴾ (١٣) ﴿ (١)

وَمَا نُوَكِّدُ أَنَّ الشَّفَاعَةَ قَدْ تُدْرِكُ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَا يَدْخُلُونَ النَّارَ بِمَعَاصِيهِمْ، لِحِكْمَةٍ يَعْلَمُهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَقَدْ تُدْرِكُهُمْ بَعْدَ أَنْ يَقْضُوا فِي النَّارِ حِقْبًا طَوِيلَةً أَوْ قَصِيرَةً.. وَهَذَا مَا تُؤَكِّدُهُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (١١٣) ﴿ (٢)

وَصَاحُ أَهْلِ الْحَقِّ هَذَا الْمَعْنَى فِي نَظْمٍ شِعْرِيٍّ هَكَذَا:

وَوَاجِبُ شَفَاعَةِ الْمُشْفَعِ	مُحَمَّدٍ، مَقْدَمًا لَا تَمْنَعُ
وَعَبِيرُهُ مِنْ مُرْتَضَى الْأَخْيَارِ	يَشْفَعُ، كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْأَخْبَارِ
إِذْ جَائِزٌ عُفْرَانُ غَيْرِ الْكُفْرِ	فَلَا نُكْفِرُ مُؤْمِنًا بِالْوِزْرِ
وَمَنْ يَمُتْ وَلَمْ يَتُبْ مِنْ ذَنْبِهِ	قَامَرُهُ مَفْوُضٌ لِرَبِّهِ

(١) سورة الفرقان الآية ٢٣.

(٢) سورة النساء الآية ١١٦.

## اللَّهُمَّ: أُمَّتِي.. أُمَّتِي

مسلمٌ في صحيحه بسنده عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو بنِ العاصِ أخرج أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

﴿ رَبِّ إِنَّمَنْ أَضَلَّنَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣٦) ﴿١﴾

وقول عيسى عليه الصلاة والسلام:

﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْمَرْزُوقُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣٧) ﴿٢﴾

فرجع يديه وقال:

«اللَّهُمَّ: أُمَّتِي.. أُمَّتِي» وبكى، فقال الله عز وجل:

[ يا جبريلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبِّكَ أَعْلَمُ - فَسَلْهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ ]

فأتاه جبريلُ عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَسَأَلَهُ؛ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ

بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: [ يا جبريلُ.. اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا

سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسْؤُوكَ.. ]

\*\*\*

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٦.

(٢) سورة المائدة الآية ١١٨.

## دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

كان النبي ﷺ يقرأ القرآن ويفقهه معانيه، ويذكر مقاصده، ويتفاعل معه؛ فيدعو في مواطن الدعاء، ويستعيد في مواطن العقاب، ويسبح في مواطن التثبيح وهكذا.

لقد تلا النبي ﷺ دعاء إبراهيم الخليل، الذي قصه القرآن المجيد في قوله جل شانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۗ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَىٰ كَثِيرًا ۗ مِنَ النَّاسِ ۗ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۗ﴾ (٣٦) (١).

فإبراهيم عليه الصلاة والسلام أراد الحفاظ على البيعة، حتى تكون صالحة للتربية، فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ۗ﴾ (١) والأمن هو نعمة النعم. وحين يأمن الناس يعبدون ربهم، قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويستعلنون بإيمانهم، ويستطيعون أن يمارسوا حياتهم الصحيحة الكاملة غير منقوصة..

ثم دعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يحفظه الله وذريته، ويهاجد بينهم وبين عبادة الأصنام، تلك العبادة التي تمتين كرامة الإنسان، وتضيع ميزته أمام أحجار لا تنفع ولا تضر. وقد خدع بهذه العبادة أجيال من بنى الإنسان، فمُنذ عهد نوح عليه الصلاة والسلام إلى اليوم،

(١) سورة إبراهيم الآيات ٣٥ - ٣٦.

(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٥.

وانتشرت الوثنية في أماكن كثيرة، في مصر القديمة وبلاد الرافدين والشام والهند والصين وفارس واليونان والرومان والجزيرة العربية.. وقد تبرأ إبراهيم عليه الصلاة والسلام من هذا الانحراف العقدي، ورد أمر المنحرفين الضالين إلى الله عز وجل. إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم. فهو سبحانه وتعالى صاحب الخلق والأمر: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ (٢٢) ﴿١﴾.

دعاء عيسى عليه الصلاة والسلام

دعا عيسى عليه الصلاة والسلام ربه قائلاً:

﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُعْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) فهذا مشهد من مشاهد القيامة يحكيه القرآن المجيد، كأننا نراه رأي العين، إن الشهيد يقع أمام الأولين والآخرين، ويبدأ بهذا النداء القدسي: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا أَنْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ الْهَيْبَةِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (٣).

فيأتي الجواب الحق من النبي المعصوم: عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (١١٦) ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٣.

(٢) سورة المائدة الآية ١١٨.

(٣) سورة المائدة الآية ١١٦.

اللَّهُ رَبِّي وَرَبِّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ  
 أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴿١﴾

لقد قرأ سيدنا محمد ﷺ هذا الجواز في هذا المشهد، ووقف عند  
 نهاية جوار عيسى عليه الصلاة والسلام في قوله تبارك وتعالى:

﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٢﴾  
 والمقصود من هذا التعبير: رد الأمر كله إلى الله تبارك وتعالى، والتسليم  
 المطلق للمشيئة الإلهية. وهو يلتقى مع دعاء إبراهيم الخليل عليه الصلاة  
 والسلام في حق عبدة الأصنام: ﴿رَبِّ إِنَّمَنْ أَضَلَّنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ  
 تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣﴾

وليس يقصد من مثل هذه التعبيرات تجويز مغفرة الكفر، والعفو عن  
 الكافرين، من غير توبة صادقة في الدنيا..

إن الله تبارك وتعالى وعد بقبول توبة التائبين في هذه الدنيا، فقال  
 جل شأنه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ  
 سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأُولِينَ﴾ ﴿٤﴾ ﴿٢٨﴾

وتوعد الله سبحانه وتعالى من مات كافراً بالخلود الأبدى في الجحيم،  
 ولن تنفعهم شفاعة الشافعين، فقال جل شأنه:

(١) سورة المائدة الآيات ١١٦ - ١١٧.

(٢) سورة المائدة الآية ١١٨.

(٣) سورة إبراهيم الآية ٣٦.

(٤) سورة الأنفال الآية ٢٨.

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِمَهْلِكَةٍ ثُمَّ يُتُوبُونَ  
 مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾  
 وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ  
 أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَاللَّيِّنُ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ  
 كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ (١)

دُعَاءُ الرَّسُولِ - ﷺ - لِأُمَّتِهِ

عرفنا دعاء إبراهيم وعيسى عليهما الصلاة والسلام لمخالفيهما،  
 وأنهما فوضا الأمر لله عز وجل، وقد قرأ الرسول ﷺ هذا الدعاء في  
 القرآن الكريم، فماذا كان موقفه ﷺ؟

يقول الراوي - كما أخرجه مسلم في صحيحه :

رفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي.. أُمَّتِي»، وبكى..

لقد أدرك الرسول ﷺ خطورة الموقف وشدة الهول وعظم الخطب،  
 وأجهش بالبكاء، وجاز إلى الله بالدعاء: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي.. يريد  
 الرحمة الكاملة لأُمَّتِهِ، وَيُسْفِقُ عَلَيْهَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ..

حينئذ بعث الله تبارك وتعالى مَلَكَ الْوَحْيِ جِبْرِيلَ الْأَمِينِ إِلَى رَسُولِهِ  
 الْكَرِيمِ، وَحَمَلَهُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ:

[ يَا جِبْرِيلُ: اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ - فَسَلِّهِ: مَا يُبْكِيكَ؟ ]

فنزل جبريل، وسأل المصطفى عن سرُّ بُكَايِهِ أثناء دُعَايِهِ، فأفضى

(١) سورة النساء الآيات ١٧ - ١٨.

إِلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ بِمَا اسْتَشْعَرَهُ فِي قَلْبِهِ عَلَى أُمَّتِهِ.. وَرَجَعَ جَبْرِيلُ إِلَى رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - حَامِلًا دُعَاءَ النَّبِيِّ ﷺ لِأُمَّتِهِ، فَجَاءَ جَبْرِيلُ بِالْبَشْرَى وَحَمَلَ وَعْدًا إِلَهِيًا، نَصَّهُ هَكَذَا:

[ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَرَضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسْؤُكَ ] .

وَهَذَا الْوَعْدُ الْإِلَهِيُّ يَلْتَقِي مَعَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

﴿ وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَرَضَىٰ ﴾ ﴿٥﴾ ﴿١١﴾

فِعْطَاءُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ فِي نَفْسِهِ وَفِي أُمَّتِهِ، فِيهِ نَفْسِهِ؛ فَهُوَ الرَّسُولُ الْخَاتَمُ، وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشْفَعٍ.. وَفِي أُمَّتِهِ: فَهِيَ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَلَنْ يُخْلَدَ أَحَدٌ مِنْهَا فِي النَّارِ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ.. وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي، شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَهِيَ نَائِلَةٌ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي، لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا».

وَلَا شَكَّ أَنَّ رَبَّنَا جَلُّ جَلَالِهِ يَعْلَمُ النَّسْرَ وَأَخْفَى؛ لَكِنَّ الْمَسْأَلَةَ جَرَتْ عَلَى هَذَا الْمَنَوَالِ، مِنَ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ، وَالذَّهَابِ وَالْمَجِيءِ؛ لِإِظْهَارِ شَرَفِ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَنَّ لَهُ مَكَانَةً سَامِيَةً وَمَنْزِلَةً رَفِيعَةً عِنْدَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ وَأَنَّهُ ﷺ يُسْتَرْضَى وَيُكْرَمُ.. وَهَذِهِ الْمَنْزِلَةُ لِرَسُولِنَا ﷺ تَدْفَعُ الْمُسْلِمَ إِلَى مَزِيدِ الْوَلَاءِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَإِلَى حُسْنِ الْاِقْتِدَاءِ بِهَذَا النَّبِيِّ الْعَظِيمِ وَذَلِكَ الرَّسُولِ الْمُشْفَعِ..

(١) سُورَةُ الضُّحَى الْآيَةُ ٥.

## عَدَدُ الْخَصَائِصِ النَّبَوِيَّةِ

البخاري في صحيحه بسنده عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «أُعْطِيَتْ خَمْسًا، لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي؛ نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ فَلْيُمْصَلْ، وَأَجَلْتُ لِي الْغَنَائِمَ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»..



يذكرُ هذا الحديثُ الشريفُ بعضَ خصائصِ المُصطفى ﷺ، تلك الخصائصِ التي جمَعها اللهُ تبارك وتعالى له، ولم تتحققْ لِنبيٍّ قبله مُفردةً ولا مجتمعةً..

والحديث هنا يذكر خمساً، هي:

- ١ - النَّصْرُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ.
- ٢ - جَعْلُ الْأَرْضِ مَسْجِدًا وَطَهُورًا.
- ٣ - جِلُّ الْغَنَائِمِ.
- ٤ - إِعْطَاءُ الشَّفَاعَةِ.
- ٥ - عُمُومُ الرَّسَالَةِ.

وجاءت أحاديثُ أخرى بخصائصٍ تشتركُ مع هذه، وتزيدُ عليها. ومن خلالِ الزياداتِ الحديثيةِ المرويةِ في الصحيحين، نسوقُ أربعاً أخرى هي:

١ - إعطاءُ جوامعِ الكلمِ.

٢ - ختمُ النبوةِ.

٣ - صفوفُ صلاتنا كصفوفِ الملائكةِ.

٤ - الآياتُ من آخرِ سورةِ البقرةِ مِنْ كُنزِ تحتِ العرشِ.

ففي صحيح مسلم بسنده عن أبي هريرة، قال:

قال رسول الله ﷺ:

«فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسَبْتٍ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّغَبِ، وَأُجِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً، وَأُرْسِلَتْ إِلَيَّ الْخَلْقُ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ.»

وفي صحيح مسلم عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ:

«فُضِّلْتُ عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثِ خِصَالٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً، وَذَكَرَ خَصْلَةً أُخْرَى وَلَمْ يَنْمَهَا.»

وقد فُتِّرتُ هذه الخصلةُ الأخرى في رواياتٍ للنسائيِّ وابنِ حُرَيْثَةَ، بأنَّها: «أُعْطِيتُ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كُنزِ تَحْتِ الْعَرْشِ». وجاءت رواياتُ السننِ والمسندِ تُضيفُ سبعَ خصائصٍ أخرى، وهي:

١ - إعطاء مفاتيح الأرض.

٢ - تسميته ﷺ أحمد.

٣ - أمته خير الأمم.

٤ - مغفرة الذنوب: ماتتقدم وماتأخر.

٥ - إعطاؤه الكوثر.

٦ - صاحب لواء الحمد.

٧ - إسلام الشيطان على يديه ﷺ.

قال الإمام ابن حجر: ويمكن أن يوجد أكثر من ذلك لمن آمن القتب. وقد ذكر أبو سعيد النيسابوري في كتاب «شرف المصطفى» أن عدد الذي اختص به نبينا ﷺ عن الأنبياء يتون خصلة.

وهذه الخصائص الخمس التي قدمها الحديث الشريف لم يمنحها الله تبارك وتعالى لنبي قبل رسول الله سيدنا محمد ﷺ، وهي:

الأولى: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»: أي: إن الله تعالى يقذف في قلوب أعداء الرسول الرعب، فيجبنون عن ملاقاته، ويفرون عن مواجهته، مع بُعد المسافة بينهما، فهناك معارك حربية قاتل فيها الرسول ﷺ، وهناك معارك أخرى استسلم فيها الأعداء دون قتال..

وعلى سبيل المثال، فإن غزوة تبوك في العام التاسع للهجرة انتهت بتفرق الروم رعباً من المسلمين، وحقق الرسول ﷺ نصراً عظيماً في أرض الشام..

الثانية: «وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا»: فالمُسلمُ يُصَلِّي حيث أدركته الصلاة في أي بقعة من أرض الله الواسعة. فالأصل في الأرض الطهارة حتى يَثْبُتَ العَكْسُ. وإذا فقد المسلم الماء: جَسًا أو معنى للوضوء أو الغسل، تيمم صعيدًا طيبًا..

أما غير المسلم فترتبط عباداتهم بأماكن خاصة يُشِيدُونَهَا، ولا تجوز في غيرها.

الثالثة: «وَأَجَلْتُ لِي الْغَنَائِمَ، وَلَمْ تَجِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي»: وذلك لأن الله تبارك وتعالى شرع الجهاد في الإسلام وأذن في ردِّ العدوان. وغالبًا تنتهي المعارك بغنائم يتركها المهزوم كالسلاح والعتاد والأموال، فهذه تُعدُّ غنيمَةً للمُنْتَصِرِ، وقد قسمها الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم فقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ﴾ (١).

أما الأنبياء السابقون فبعضهم لم يُقاتل، ولم يُشرع لهم الجهاد: كهودٍ وصالحٍ وشُعيبٍ وإبراهيمَ ولوطَ وزكريا ويحيى وعيسى.. وبعضهم قاتل وجاهد ولم تجل لهم الغنائم، بل كانت تُترك حيث هي وتُحرق، كموسى وداود وسليمان.. عليهم الصلاة والسلام.

الرابعة: «وَأَعْطَيْتُ الشُّفَاعَةَ»: والمرادُ بها الشفاعةُ العظيمةُ لفصل الخطاب بين الخلائق أجمعين، حتى يستريح الخلق من أهوالِ الموقفِ ثم تتوالى بعد ذلك الشفاعاتُ الصغرى للأنبياءِ والأولياءِ والصالحين.

(١) سورة الأنفال الآية ٤١.

الخامسة: «وكانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»: فرسالةُ الإسلامِ عامَّةٌ إلى الثَّقَلَيْنِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَهِيَ تَتَخَطَّى حُجُبَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا..